الدرس الثاني : الأمثال في القرآن الكريم اختيار ودراسة

نوع الدرس: أعمال موجهة

تمهيد
المَثَل لغة
المَثل في القرآن
الآيات الجارية مجرى الأمثال
فوائد ضرب المثل

تمهيد:

ضرب اللهُ الأمثالَ في كتابه العزيز، دلَّ على هذا الكتابُ نفسُه، فقال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[الحشر: 21]، وقال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: 43]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[الزمر: 27]. وتتبَّع ابن القيم أمثالَ القرآن التي تضمّنت تشبيه الشيء بنظيره، والتسوية بينهما في الحُكم، فبلغت بضعة وأربعين مثلًا.

فللأمثال أثر بليغ في تلقِّي الدعوة بالقبول؛ لذلك أحرزَتْ بين الأساليب التي يتحرّاها القرآن في هدايته منزلةً ساميةً.

المَثَل لغة: يُستعمل المَثَل في أصل اللغة بمعنى التشبيه والمِثْل، ثم قالوا للقول السائر الممثّل مضربه بمورده: مَثَلًا. والمَثَل بهذا المعنى هو الذي ألّفَ فيه علماء اللغة كتب الأمثال: كأبي عبيدة، وابن حبيب، وابن قتيبة، وابن الأنباري، وأبي هلال، والميداني.ولما كان العرب لا يضربون الأمثال إلا بقول فيه حُسْن وغرابة، نقلوا لفظ المَثَل إلى معنى ثالث هو: الشأن الغريب، والقصة العجيبة، وبهذا المعنى فُسِّر لفظ المَثَل في كثير من الآيات؛ كقوله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ}[محمد: 15].

المَثل في القرآن: فإذا رجعنا بعد هذا إلى تعرّف أمثال القرآن المشار إليها بمثل قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[الحشر: 21]؛ لنعلم ما المراد من المَثَل الذي يضربه الله للناس، فهل يراد منه: الشبيه والنّظير؟ أو يراد منه: القول السائر الذي يُشبَّه مضربه بمورده، أو يراد منه الحال، أو القصة الغريبة، أو يراد: المجاز المركب المستعمل على وجه الاستعارة؟ .

قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا}[البقرة: 17]،

قوله تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}[النور: 35] إلى آخر الآية.

قوله تعالى: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ..}[الحج: 73] الآية،.

كقوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}[الحج: 31]،

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}[النور: 39، 40].

الآيات الجارية مجرى الأمثال:

قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[الكافرون: 6]؛ إذ يستعملونها في المتاركة،

قوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[الإسراء: 81].

قوله تعالى: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}[النجم: 58]، وقوله تعالى: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}[المؤمنون: 53]،

قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ}[المائدة: 100]،

وقوله تعالى: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}[التوبة: 91]،

وقوله تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}[فاطر: 43].

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[الكافرون: 6]: «جرَتْ عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثّل به، بل يتدبر فيه، ثمّ يعمل بموجبه».

فوائد ضرب المثل:

يُضرب المثل لتقرير حال الممثَّل في النفس: قال تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}[البقرة: 264]، فقد مثَّل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصيبه مطرٌ غزيرٌ، فيَذهب بما عليه من تراب، فأعمال المرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنها تَذهب هباء، ولا يجد لها ثوابًا، وفي هذا المثل تقرير لخيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون.

ويُضرب المثل للترغيب في الممثَّل: قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: 261].

ويُضرب المثل للتنفير: قال تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}[الحجرات: 12].

ويُضرب المثل لمدح الممثَّل: قال تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}[الفتح: 29].

ويُضرب المثل للذمِّ: قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}[الأعراف: 175، 176].

ويُضرب المثل في مقام الاحتجاج؛ : قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ}[النحل: 75].

ومن بديع أسلوب القرآن في ضرب المثل: أن يسوق الجُمل مستعملًا لها في معانيها الحقيقية، قاصدًا بها غرضًا خاصًّا؛ كالاحتجاج على بعض العقائد، وبعدَ أن يفيد بها هذا الغرض يعود إلى جَعْلها مثلًا يرمي إلى غرض من الأغراض التي تُضرَب لها الأمثال، فانظروا إن شئتم إلى قوله تعالى: {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[الرعد: 16، 17].

فقوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ...} إلى قوله: {زَبَدٌ مِثْلُهُ} ظاهر في معنى تقرير حُجة على كمال قدرته تعالى، وبعد أن أقام به حجة على المشركين، جعَل هذا القول نفسَه مثلًا يستبين به الحق والباطل، فقال تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، وهذا من الإيجاز الذي بلغ به القرآن أعلى طبقات البلاغة.

إذا ضرب الله مثلًا، فهل يجوز أن يُراد من ذلك المثل: المعنى الذي سيق من أَجْلِه؛ نحو: التقرير، أو التحسين، أو التقبيح، ولا يلزم أن تكون صورة الممثَّل به واقعة في نفس الأمر؟!

ذهب فريق إلى جواز ذلك؛ فترَون الزمخشري -وهو يُنكِر أن يَصرع الشيطانُ الإنسانَ- يقول في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}[البقرة: 275]: «تخبُّطُ الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أنّ الشيطان يخبط الإنسان فيَصرعه، فورَد على ما كانوا يعتقدون».

أو يقال: إنّ الله لا يضرب المثل إلا بما يقع، حتى إذا ضرب المثل بشيء، أمكننا الاستدلال بالتمثيل على وقوع ذلك الشيء، وهذا ما يقوله جمهور أهل السُّنَّة، ونحن نستبعد أن يمثّل الله تعالى بأمرٍ يزعمه الناس زعمًا باطلًا؛ فإنّ التمثيل به دون تنبيه على بطلانه لا يلائم ما عُرف في هداية القرآن، ومن هنا قرّر المحققون من الأصوليِّين قاعدة هي: (أنّ ما يقصُّه القرآن من قول يتضمن رأيًا، ولا يقرنه بتنبيه على بطلانه، أو يكون قد نبَّه عليه مِن قبل، فإنه يُعدُّ حقًّا لا محالة).

فالقرآن لا يُمثِّل بشيءٍ يزعمه العرب زعمًا باطلًا، ولكنه قد يمثّل بشيءٍ لا يدخل في قبيل المزاعم الباطلة، وإنما هو شيء يصفه بصفات مفهومة الحقائق، ممكنة الوقوع، وإن لم تقع عليها أعين الناس مجتمعة، فالله تعالى يقول: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ}[البقرة: 261]، فقد ذكر طائفة من الباحثين أنَّ هذا من قَبيل التمثيل موجود، وأنَّ البُرَّة -الحبَّة من البُرِّ- قد تبلغ في الأرض القويَّة المُغِلَّة أنْ تُنبِت سبع سنابل في كلّ سنبلةٍ مائة حبة، وعلى فرض أن لا يرى النّاس حبّة بلغت في الإنبات هذا المبلغ، لم يكن في تمثيل القرآن بها مِن بأس.

وقد يَضرب القرآنُ المثلَ بأمرٍ موجودٍ على حال حُسن أو قُبح، والناس يعتقدونه على ما هو عليه مِن حُسْنٍ أو قُبْحٍ، وإن لم يرَوه بأبصارهم، ولكنه يحضر في أذهانهم بصورة جميلة، أو صورة قبيحة، فيكون التمثيل به تمثيلًا بأمرٍ موجودٍ، وصورته الحاضرة في الأذهان مطابقة للواقع من حيث حسنها أو قبحها، ومثل هذا قوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ

الشَّيَاطِينِ}[الصافات: 64، 65]، فالشيطان شخصٌ حيٌّ، ولكن المخاطَبين لم يرَوه بأبصارهم، وجاء التمثيل في هذه الآية على ما اعتقدوه اعتقادًا مطابقًا مِن قُبح صورته، وعلى هذا النحو يجري التمثُّل بالـمَلَك في قوله تعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}[يوسف: 31]، فإنّ التمثيل جارٍ على ما تصوّروه مِن حُسنه، وهذا التصور صادق لا محالة.

وإن تعجب، فاقضِ العجبَ ممن يعمد إلى قصةٍ في القرآن، قصَّها الله تعالى؛ لِمَا فيها من عِبرةٍ وحِكمة، ويجرؤ على أن يقول: «إنّ هذه القصة وردت على طريقة التمثيل!» يقول هذا وليس بيده شاهدٌ من الآية نفسِها، ولا دليلٌ سمعيٌّ من غيرها، ولا أنّ العقل السليم يُنكِر أن تكون واقعة؛ كما قال بعضهم هذا القول في قصة الملائكة وسجودهم لآدم -عليه السلام-.

ولو فُتح هذا الباب من التأويل الجامح، لاتخذه ضعفاء الإيمان وسيلة إلى جحودِ كثيرٍ من الحقائق؛ حيث يحملون آياتها على أنها تمثيل، ويخترعون لها من الممثَّلات ما تشاء أهواؤهم.

وإذا كان القرآن إنما نزل بلسانٍ عربيّ مبين، فإنّ العرب لا يذهبون بالكلام مذهبَ التمثيل إلَّا أنْ يحفُّوه بقرينة كافية في الدلالة على أنه تمثيل.